

## فرحة العيد المنقوصة

يحتفل أهالي غزّة بعيد الفطر السعيد في ظلّ غياب آلاف الشباب ممّن خرجوا من القطاع أملًا بمستقبل أفضل.



سوق في غزّة، تصوير: أسماء الخالدي

قرابة نصف سكّان قطاع غزّة تحت سنّ 18، والأغلبية الساحقة من السكّان تحت سنّ 30. نسب البطالة في تصاعدي مستمر، إذ بلغت بين الشباب قرابة 70 بالمئة. حتّى بالنسبة للأكاديميين وأصحاب المهن، تتضاءل إمكانيّة العيش بما يستوفي الحد الأدنى من الحياة العائليّة والمعيشيّة، إذ لا احتمال حقيقيّ لتحسّن الاقتصاد في الظروف الراهنة. تتعلّق المزيد من العائلات بالمساعدات التي تقدمها منظمات الإغاثة، فيما تصارع هذه المنظمات، هي الأخرى، لتحصيل الميزانيات المطلوبة لاستمرار عملها. يبدو مع مرور الوقت أن العالم اعتاد على هذا الوضع، كأننا أمام قوى الطبيعة التي لا يُمكن مواجهتها: الحالة الإنسانيّة في غزّة على شفا الانهيار، وهي آخذة بالتدهور المستمر مع كلّ تصاعديّ لجولات القتال. الحكومات والمنظمات العالميّة مهتمّة بأزمات أخرى في العالم، أزمات أقرب إليها جغرافيًا أو أسهل حلًا، بينما تفقد أملها بحلّ النزاع في غزّة.

على هذه الخلفيّة، توجّه شباب غزّة في ربيع 2018 للتظاهر أمام السياج الفاصل، على أمل أن يُسمعوا صوتهم، وأن يُدخّروا العالم بأنهم يستحقّون مستقبلًا وحياءً بعقّها السلام، وأن ينالوا كافّة إمكانيّات الحركة والتنقل المتوقّرة في القرن الـ 21، ويطالبوا بحلّ سياسيّ عادل ينصقن مسألة اللجوء الفلسطينيّ. تشير التقديرات إلى أن إحدى النتائج المباشرة للاحتجاج كانت فتح معبر رفح مجددًا، وذلك بعد خمس سنوات من إغلاقه بشكلٍ شبه دائم. منذ 12 أيار 2018، يعمل معبر رفح خمسة أيّام في الأسبوع. منذ أن فُتح بشكلٍ منتظم، وحتّى نهاية نيسان 2019، سُجّل 83,559 خروجًا إلى مصر، و55,655 دخولًا إلى القطاع. يُذكر أنّ الخروج عبر معبر رفح ممكن رسميًا لمن يندرج ضمن الفئات الآتية: أصحاب الجوازات أو الإقامة الأجنبيّة، الطلّاب أو حاملو تأشيرات الدخول إلى مصر أو إلى دوليّة ثالثة، المرضى الحاصلين على تحويلات طبيّة للمستشفيات المصريّة، بالإضافة إلى الحجاج والمعتمرون إلى مكّة في بعض الأحيان. إحدى الفئات غير الرسميّة للخروج من غزّة تُسمّى "التنسيقات"، إنما لا تتوفّر معلومات حول أعداد حالات الخروج ضمن هذه الفئة، والتي تُشير غالبًا إلى من تمكّنوا من الخروج من غزّة غالبًا لقاء دفع مبالغ تصل حتى 3,000 دولار.

نشرت الصحافة مؤخرًا تقارير تفيد بأن 35 ألف شخص هاجروا من قطاع غزة منذ أن تم فتح معبر رفح من جديد. بحسب معلومات وردتنا من منظمة الصحة العالمية فقد غادر القطاع ما يقارب 150 عاملًا في مجال الطب. انتهر الآلاف إمكانية الخروج من القطاع للبحث عن مستقبلٍ آخر، بعيدًا عن الفقر وفقدان الأمل الذي يشعرون به في ديارهم. عيد الفطر هو مناسبة تلتئم فيها العائلة وتحتفل رغم قسوة الأوضاع. هذه مناسبة ملائمة لسؤال كيف تؤثر الضائقة، وإغراء البحث عن بديل خارج البلاد، على الحياة العائلية وعلى حياة الشباب في قطاع غزة.

رغم الأعداد المرتفعة نسبيًا لحالات الخروج والدخول عبر معبر رفح خلال السنة الأخيرة، لا زالت قائمة طلبات الخروج والدخول من خلاله تطول باستمرار. يستغرق السفر عبر معبر رفح إلى القاهرة مدة 48 ساعة، وتستغرق طريق العودة من القاهرة إلى المعبر أكثر من ذلك. الترتيبات الأمنية المشددة، وحظر التجول الذي يفرضه الجيش المصري في شمال سيناء من الساعة السادسة مساءً وحتى السادسة صباحًا، كلًا عوامل تعيق المسافرين وتعرض ظروف سفر قاسية.

يبلغ محمّد أبو جقيرة من العمر 37 عامًا، خرج من قطاع غزة إلى تركيا عن طريق القاهرة في آب 2018، وانتقل من هناك إلى اليونان بطريقة غير رسمية، وبمكث الآن في مخيم لاجئين في جزيرة كيوس. "بعد ستة شهور فهمت بأن كل ما سمعته [عن أوروبا] كان أطلاقًا وأوهام. لا تتوفر في مخيم اللاجئين حتى ظروف الحياة الأساسية، لا مال ولا شغل. أريد أن أعود إلى زوجتي وأبنائي. كثيرون ممن وصلوا إلى هنا يشعرون بالضياع واليأس"

نيفين أبو جقيرة، زوجة محمّد، البالغة من العمر 30 عامًا، وهي أم لأربعة أطفال، قالت لـ "جيشاه-مسلك" أن زوجها سافر قبل عشر شهور بهدف البحث عن عملٍ لكسب رزقه، بحيث يمكنه لاحقًا من استدعاء عائلته. باع كل الطيور التي ربّاه في غزة واعتاش على تربيتها، اقترض من أخته مبلغًا وسافر مع بعض معارفه. أما الآن، فليس للعائلة أي مصدر رزق. يريد محمّد العودة إلى غزة إنما لا طريقة لذلك. لا يملك مالا يمكنه من العودة، وإن عاد لتركيا سيكون مهذدًا بالسجن لأنّه خرج منها بطريقة غير رسمية. "توقّفت عن إرسال أولادي إلى المدرسة،" تقول الزوجة "ليس لدي ما يكفي من المال لدفع المواصلات. طلبت مديرة المدرسة أن أعيدهم للتعليم وأن تتكفل بنفسها بدفع المواصلات. حاولت أن أجد عملًا ولم أجد. في كل مرة نتحدث فيها معه عبر الانترنت، نبكي جميعًا. ما دفع محمّد للسفر يدفع كثير من الشباب للسفر: الظروف السيئة التي نعيشها. بعد هذه التجربة، أتصح كل الشباب بالتفكير ألف مرة قبل أن يقرّروا المغادرة، وأدعو في صلاتي ليتحسن الوضع هنا"

درس محمد سلمان، 33 عامًا، الحسابات في مصر، وعمل مدقق حسابات في جمعيات في قطاع غزة. أُقيل من عمله عام 2018 على أثر صعوبات في تمويل الجمعيات، ولم يجد عملًا آخر. في كانون ثاني 2019 سافر إلى بلجيكا طالبًا اللجوء، ولا زال ينتظر جواب السلطات هناك. في مقابلة مع "جيشاه-مسلك" قال سلمان: "لو أتيح لي أن أعمل في غزة لما دفعت كل هذه المبالغ حتى أصل إلى هنا. زوجتي وأولادي لا زالوا في غزة، أنا قلق جدًا وأشعر بنقل المسؤولية اتجاههم. غزة جميلة، لكن الأوضاع أصبحت أصعب مما يمكن احتمالها، ولم تعد أمامي أي إمكانية أخرى. لا زلت أنتظر ما يخبئه الغد. بلجيكا ليست كما سمعنا، والحياة هنا ليست وديّة".

عمل محمّد الأطرش (24 عامًا) في تصميم واجهات المباني في قطاع غزة. مع تراجع الطلب في هذا المجال، قرّر محاولة الهجرة. وصل إلى تركيا عبر معبر رفح، وتوجّه هناك إلى شبكةٍ لتهرب المهاجرين إلى أوروبا؛ بعد أن دفع لهم مبلغًا كبيرًا، اختفوا. مكث شهرين في إسطنبول قبل أن يعود إلى غزة. "أشعر بأنّي محظوظ لأنّي تمكّنت من العودة"، يعترف الأطرش. "أسمع قصصًا مروّعة عن توتّرطوا هناك. وأنا الآن أناشد الشباب بأن يفكروا مرّتين قبل السفر" منذ عاد، يعمل الأطرش في البناء يوميًا في الأسبوع، ويأمل أن تتحسن الأوضاع.

د. سامي عويضة، مدير عيادة غزة التابعة لبرنامج غزة للصحة النفسية، يفيد بأن "سكان غزة يشعرون بأنهم يعيشون في سجن كبير. طبع النفس الإنسانية تواق للحرية. من جهة، فإن وجود معبر مفتوح بشكل منتظم يمنح الناس شعورًا بنوع من الراحة والهدوء. بالإضافة لذلك، يتيح فتح المعبر خروج المرضى لتلقي العلاج، وخروج الأشخاص لمواصلة تعليمهم وعملهم وزيارة أبناء عائلاتهم. من جهة أخرى، توجد علاقة وطيدة تربط الاكتئاب والشعور بالوحدة، وحتى الانتحار، بالضائقة المالية. في السابق، كانت معظم التوجهات إلى العيادة مرتبطة بالتوتر واضطراب ما بعد الصدمة، في السنوات الأخيرة، فإن معظم المتوجهين إلينا يعانون من الاكتئاب والتوتر بسبب الأوضاع الاقتصادية. بتقديري، فإن 90 بالمئة من الأمراض في القطاع ناتجة عن الأوضاع الاقتصادية، ويمكن علاجها وتجاوزها من خلال تحسين الأوضاع الاقتصادية"

سعيًا للبحث عن حياة أفضل في الخارج، وفي ظل واقع اليأس داخل القطاع، ينتهز الآلاف فرصة فتح معبر رفح بانتظام نسبيًا يجازفون ويسلكون الطريق العسيرة إلى أوروبا، يواجهون التحديات والمخاطر على أمل الاستقرار كلاجئين في تلك البلاد.

لبي فتح المعبر حاجة الكثيرين ممن خرجوا للتعليم والعلاج الطبي وتحصيل المعيشة، لكن معبر رفح لا يسد، حتى في أحسن الأحوال، حاجة مليوني إنسان في غزة وتوقعهم لحريّة الحركة. طالما ظلّت غزة معزولة عن الضقة الغربية وإسرائيل، طالما بقيت الأسواق الطبيعية والمواد الخام والمعدّات الحيويّة محظورة؛ طالما بقي الصيد البحري خطيرًا كما العمل في الحقول، وطالما ظلّت الحركة والتنقل بهدف التعلّم والتقدّم المهني والحاجات العائليّة مقيّدة بشدّة، فإن مستقبل كل شباب المنطقة سيبقى غارقًا في الضبابيّة.

تتمنى "جيشاه-مسلك" عيدًا مباركًا لكل المحنّين بالعيد في حضن عائلاتهم، ولمن يزورهم العيد بعيدين عن أفرابهم وأحبائهم.